الحمد لله والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبعد:

والله إن المرء ليصاب بالحيرة والاضطراب، عندما يرى طالب العلم يرفع أنفه ويتكبر على الجميع، ويحتقر إخوانه أو يستصغرهم، بحجة أنهم لا يعرفون معرفته، ولا يحسنون ما يحسن، ولم يطلبوا كما طلب، ولا يبلغون رتبته. أضف إلى ذلك شدة إعجابه بنفسه، وانعدام الورع، وتلون حسب التضاريس، وتشكل حسب الحاجة، وتناقض كما هو مشاهد في طبيعتة، ومراء وجدال لا ينتهي، حتى ظن نفسه أنه وحيد الدهر، وفريد العصر، وأعجوبة الزمان، وحسنة الأيام، حتى صدق عليه المثل الشامي القديم: يا أرض اشتدي ما عليك قدي.

ورحم الله الإمام بلال بن سعد الذي انتبه وتفظن لمثل هذا النوع من البشر فقال:

((إذا رأيت الرجل لجوجاً ممارياً معجب برأيه فقد تمت خسارته)).

الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية للإمام ابن بطة العكبري 2/141.

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله وهو يبين أحول هذا الضرب من البشر:

((فسبحان الله، كم **من قلب منكوس وصاحبه لا يشعر! وقلب ممسوخ**، وقلب مخسوف به**!** وكم من مفتون بثناء الناس عليه، **ومغرور بستر الله عليه**، ومستدرج بنعم الله عليه**!** وكل هذه عقوبات وإهانة، ويظن الجاهل أنها كرامة**!**

الداء والدواء (الجواب الكافي) 277 للإمام ابن القيم .

وقديما قيل: **الغرور مقبرة الأذكياء!!**

فيا ترى ماهو الغرور؟

يقول العلامة أبو الطيب صديق خان القنوجي رحمه الله وهو يشرح معنى الغرور:

((الغرور: هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان.

والمغرورون أصناف:

منهم: العلماء الذين أحكموا العلوم الشرعية والعقلية، وتعمقوا فيها وأهملوا محافظة الجوارح عن المعاصي وإلزامها الأعمال الصالحة، وهم مغرورون، **لأن العلم إذا لم يقارنه العمل لا يكون له مكان عند الله** تعالى وعند الخواص من عباده.

ومنهم: الذين أحكموا العلم والعمل، وأهملوا تزكية نفوسهم عن الأخلاق الذميمة، وهم مغرورون أيضاً، إذ **لا ينجو في الآخرة إلا من أتى الله بقلب سليم.**

ومنهم: الذين اعترفوا بأن النجاة في الآخرة إنما هي بتزكية النفس عن الأخلاق الذميمة، إلا أنهم يزعمون أنهم منفكون عنها، وهؤلاء مغرورون أيضاً، لأن هذا من العجب، **والعجب من أشد الصفات المهلكات**.

ومنهم: الذين اتصفوا بالعلم وتزكية الأخلاق، لكن بقي منها خبايا في زوايا القلب، ولم يشعروا بها،**وهؤلاء أيضاً مغرورون، بظاهر أحوالهم** وغفلوا عن تحصيل القلب السليم.

ومنهم: الذين اقتصروا على علم الفتاوى وإجراء الأحكام، **وهم مغرورون لأنهم اقتصروا على فرض الكفاية**، وأخلوا بفرض العين، وهو: إصلاح أنفسهم، وتزكية أخلاقهم، وتصفية قلوبهم من الحقد والحسد، وأمثال ذلك.

ومنهم: الوعاظ، وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النفس، وصفات القلب، من الخوف، والرجاء، والإخلاص ونحو ذلك، **وأكثرهم مغرورون لأنهم**

يتكلمون فيما ذكر، وليس لهم من ذلك شيء.

ومنهم: من اشتغل باللغة، ودقائق العلوم العربية، وأفنوا عمرهم فيها ظناً منهم أنهم من علماء الأمة، لأنهم في صدد أحكام مباني الكتاب والسنة، وهم مغرورون **لأنهم: اتخذوا القشر مقصوداً فاغتروا به.**

وأصناف المغرورين من الناس **لا يمكن تعدادهم**، وفي هذا القدر كفاية لمن اعتبر، اللهم ألهمنا طريق دفع الغرور، ولا يمكن ذلك إلا بالعقل الذي هو مبنى الخيرات، وأساسها ثم بالمعرفة، **وهي لا تعم إلا بمعرفة نفسه بالذل والعبودية، ومعرفة ربه بالجلال والهيبة، وصفاً بقلبه بلذة المناجات،**

واستوت عنده من الدنيا ذهبها ومدرها، ولا يبقى للشيطان عليه من سلطان فاحٍ ينسد في قلبه مداخل الغرور، (**وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**). أبجد العلوم لصديق خان القنوجي 2/86-87.

ويقول الإمام الذهبي رحمه الله وهو يتحدث عن أشر أنواع الغرور والكبر: ((وأشر الكبر: **من تكبر على العباد بعلمه، وتعاظم في نفسه بفضيلته، فإن هذا لم ينفعه علمه**، فإن من طلب العلم للآخرة كسره علمه، وخشع قلبه، واستكانت نفسه، وكان على نفسه بالمرصاد، فلم يفتر عنها، بل يحاسبها كل وقت ويثقفها؛ فإن غفل عنها جمحت عن الطريق المستقيم وأهلكته، ومن طلب العلم للفخر والرياسة، ونظر إلى المسلمين شزراً، وتحامق عليهم، وازدرى بهم؛ فهذا من أكبر الكبر، ولا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر، فلا حول ولا قوة إلا بالله)). الكبائر للإمام للذهبي 197.

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله وهو يبين خطورة العجب والكبر وأنهما أكبر الكبائر: ((أن جهله بنفسه وصفاتها وآفاتها وعيوب عمله، وجهله بربه وحقوقه وما ينبغي أن يعامل به يتولد منهما رضاه بطاعته وإحسان ظنه بها، ويتولد من ذلك: من العجب والكبر والآفات ما هو أكبر **من الكبائر الظاهرة من الزنا، وشرب الخمر، والفرار من الزحف ونحوه**)). مدارج السالكين للإمام ابن القيم 1/175.

ويقول أبو الحسن الماوردي رحمه الله وهو يتحدث عن ذم الكبر والعجب: ((مجانبة الكبر والإعجابلأنهما يسلبن الفضائل ويكسبان الرذائل. وليس لمن استوليا عليه إصغاء لنصح، ولا قبول لتأديب، لأن الكبر يكون بالمنزلة والعجب، والعجب يكون بالفضيلة. **فالمتكبر يجل نفسه عن رتبة المتعلمين،والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتأدبين**. فلذلك وجب تقديم القول بإبانة ما يكسبانه من ذم، ويوجبانه من لوم. فنقول: أما الكبر فيكسب المقت ويلهي عن التألف ويوغر الصدور الإخوان، وحسبك بذلك سوءاً عن استقصاء ذمه)) آداب الدنيا والدين للماوردي ص 246.

وقال أيضاً رحمه الله: ((وأما الإعجاب فيخفي المحاسن ويظهر المساوئ ويكسب المذام ويصد عن الفضائل.....وقال بعض الحكماء: **عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله**. وليس إلى ما يكسبه الكبر من المقت حد، ولا إلى ما ينتهي إليه العجب من الجهل غاية، حتى إنه ليطفئ من المحاسن ما انتشر، ويسلب من الفضائل ما اشتهر. وناهيك بسيئة تحبط كل حسنة وبمذمة تهدم كل فضيلة، مع ما يثيره من حنق ويكسبه من حقد)). أدب الدنيا والدين للماوردي ص 247-248.

وقال الأحنف بن قيس: ((عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر)) أدب الدنيا والدين للماوردي ص 248.

ولقد اشتد نكير وذم أهل العلم والفضل للعجب الغروروإليكم بعض نصوصهم:

قال كعب الأحبار رحمه الله: ((إياكم والعجب فإنه الذبح والهلاك)). حلية الأولياء لأبي نعيم 5/376.

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: ((من وقي خمساً فقد وقي شر الدنيا والآخرة. **العجب والرياء والكبر والإزراء والشهوة**)). حلية الأولياء لأبي نعيم 8/95.

وقال أبو عثمان سعيد بن إسماعيل رحمه الله: ((الخوف من الله يوصلك إلى الله والكبر والعجب في نفسك يقطعك عن الله، **واحتقار الناس في نفسك مرض لا يداوى**)). حلية الأولياء لأبي نعيم 10/245.

قال أبو وهب المروزي: سألت ابن المبارك ما الكبر؟ قال: أن تزدري الناس. فسألته عن العجب؟ قال : أن ترى أن عندك شيئاً ليس عند غيرك، لا أعلم في المصلين شيئاً شراً من العجب)). سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي 8/407.

وعن محمد بن المثنى رحمه الله قال: سمعت بشر بن الحارث يقول:

((العجب أن تستكثر، عملك وتستقل عمل الناس أو عمل غيرك)). حلية الأولياء لأبي نعيم 8/348.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم رحمه الله: كان أبي يقول: ((أي بني وكيف تعجبك نفسك وأنت لا تشاء أن ترى من عباد الله من هو خير منك إلا رأيته، **يا بني لا ترى أنك خير من أحد يقول: لا إله إلا الله حتى تدخل الجنة ويدخل النار**، فإذا دخلت الجنة ودخل النار تبين لك أنك خير منه)).

حلية الأولياء لأبي نعيم 3/222.

وقال القرافي رحمه الله: ((وسر تحريم العُجب أنه سوء أدب مع الله تعالى، **فإن العبد لا ينبغي له أن يستعظم ما يتقرب به إلى سيده**، بل يستصغره بالنسبة إلى عظمة سيده، لا سيما عظمة الله تعالى، ولذلك قال الله تعالى: **[وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ]** الزمر: 67] أي: ما عظموه حق تعظيمه، فمن أعجب بنفسه وعبادته فقد هلك مع ربه، وهو مطلع عليه، وعرض نفسه لمقت الله تعالى وسخطه)).

الفروق للقرافي 4/336.

عن عبد الله بن مُرة عن مسروق قال: ((بحسب الرّجل من العلم أن يخشى الله عزّ وجلّ وبحسب الرّجل من الجهل أن يعجب بعلمه)). كتاب العلم للحافظ أبي خيثمة ص 13.

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: ((ما صدق الله عبد أحب الشهرة)). فقال الذهبي رحمه الله معلقاً على كلامه: ((علامة المخلص الذي قد يحب شهرة، ولا يشعر بها، أنه إذا عوتب في ذلك،لا يحرد ولا يبرئ نفسه، بل يعترف، ويقول: رحم الله من أهدى إلي عيوبي، **ولا يكن معجباً بنفسه؛ لا يشعر بعيوبها، بل لا يشعر أنه لا يشعر، فإن هذا داء مزمن**)). سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي 7/393.

وسُئِلَ الحافظ عبد الغني المقدسي رحمه الله: لِمَ لا تقرأ من غير كتاب؟ قال: ((أخاف العجب)). سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي 21/449.

وقالوا: ((من أعجب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله زل، ومن تكبر على الناس ذل، ومن خالط الأنذال حقر، ومن جالس العلماء وقر)). جامع بيان العلم وفضله للإمام ابن عبد البر 1/571.

عقوبة المغرور والمعجب بنفسه:

ويقول الإمام الذهبي رحمه الله وهو يبين عقوبة المغرور والمعجب بنفسه : ((فكم من رجل نطق بالحق، وأمر بالمعروف، فيسلط الله عليه من يؤذيه، لسوء قصده وحبه للرئاسة الدينية، فهذا داء خفي سار في نفوس الفقهاء، كما أنه داء سار في نفوس المنفقين من الأغنياء وأرباب الوقوف والترب المزخرفة، وهو داء خفي يسري في نفوس الجند والأمراء والمجاهدين، فتراهم يلتقون العدو، ويصطدم الجمعان وفي نفوس المجاهدين مخبآت وكمائن من الاختيال وإظهار الشجاعة ليقال، والعجب، ولبس القراقل، المذهبة – نوع من الثياب-، والخوذ المزخرفة، والعدد المحلاة على نفوس متكبرة، وفرسان متجبرة .... فأنى ينصرون؟ وكيف لا يخذلون؟ اللهم: فانصر دينك ووفق عبادك)). سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي 18/192.

علاج الغرور والعجب والكبر:

أيها السني المبارك إذا أردت أن تعرف أسرع وأمثل علاج لهذه الأمراض القاتلة، فعليك بهذه الوصفة الشافية، المستلزمة للعافية الأبدية بإذن الله من طبيب متخصص، تخصص في طب الأبدان والقلوب، إنه الإمام والعالم الرباني ابن القيم رحمه الله تعالى، حيث يقول في وصف هذا العلاج الشافي: ((ثم إن القلب يعرض له **مرضان عظيمان**، إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولا بد، وهما **الرياء، والكبر**، فدواء الرياء بـ **(إِيَّاكَ نَعْبُدُ)** ودواء الكبر بـ **(إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)**. وكثيرا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: **(إِيَّاكَ نَعْبُدُ)** تدفع الرياء **(وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)** تدفع الكبرياء.

فإذا عوفي من مرض الرياء بـ (**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**) ومن مرض الكبرياء والعجب بـ (**إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**) ومن مرض الضلال والجهل بـ (**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**) عوفي من أمراضه وأسقامه، ورفل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة، وكان من المنعم عليهم غير المغضوب عليهم وهم أهل فساد القصد، الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه والضالين وهم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه)). مدارج السالكين للإمام ابن القيم 1/54.

قلت: صدق والله الإمام ابن القيم رحمه الله فوصفته وصفة سهلة، شافية، وشاملة، من استعملها برىء من ساعته، وذهب ما كان يجده في نفسه وفي عقله. ثم بلغنا فيما بعد أيها الأحبة في الله أن هناك وصفة أخرى تتصب مع وصفة الإمام ابن القيم في مكان واحد، من طبيب متخصص، ماهر، حاذق اسمه ابن حزم من الأندلس، حيث يقول رحمه الله في وصفته لعلاج تلك الأمراض الفتاكة: ((فصل في مداواة ذوي الأخلاق الفاسدة العجب. ومن امتحن بالعجب فليفكر في عيوبه، فإن أعجب بفضائله فليفتش ما فيه من الأخلاق الدنيئة، فإن خفيت عليه عيوبه جملة حتى أنه لا عيب فيه **فليعلم أن مصيبته إلى الأبد**، وأنه أتم الناس نقصاً، وأعظمهم عيوباً وأضعفهم تمييزاً. وأول ذلك أنه ضعيف العقل جاهل، ولا عيب أشد من هذين، لأن العاقل: هو من ميز عيوب نفسه فغالبها، وسعى في قمعها. والأحمق هو الذي يجهل عيوب نفسه، إما لقلة علمه، وتمييزه وضعف فكرته، وإما لأنه يقدر **أن عيوبه خصال وهذا أشد عيوب أهل** الأرض. وفي الناس كثير يفخرون بالزنى واللياطة والسرقة والخمر، والظلم، فيعجب بتأتي هذه النجوس له، وبقوته على هذه المخازي.

واعلم يقيناً أنه لا يسلم أنسي من نقص، حاشا الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين.**فمن خفيت عليه عيوب نفسه فقد سقط، وصار من السخف والضعف والرذالة والخسة، وضعف التمييز والعقل وقلة الفهم، بحيث لا يتخلف عنه متخلف من الأراذل**، وبحيث ليس تحته منزلة من الدناءة، فليتدارك نفسه بالحث عن عيوبه، والاشتغال بذلك عن الإعجاب بها، وعن عيوب غيره التي لا تضره لا في الدنيا ولا في الآخرة. وما أدري لسماع عيوب الناس خصلة إلا الاتعاظ بما يسمع المرء منها فيجتنبها، ويسعى في إزالة ما فيه منها بحول الله تعالى وقوته.

وأما النطق بعيوب الناس فعيب كبير لا يسوغ أصلا، والواجب اجتنابه إلا في نصيحة من يتوقع عليه الأذى بمداخلة المعيب، أو على سبيل تبكيت المعجب، فقط في وجهه لا خلف ظهره. ثم نقول للمعجب: ارجع إلى نفسك، فإذا ميزت عيوبها فقد داويت عجبك، ولا تمثل بين نفسك وبين من هو أكثر عيوباً منها، فتستسهل الرذائل، وتكون مقلدا لأهل الشر، وقد ذم تقليد أهل الخير؛ فكيف بتقليد أهل الشر؟؟ لكن مثل بين نفسك وبين من هو أفضل منك. فحينئذ يتلف عجبك وتفيق من هذا الداء القبيح، الذي يولد عليك الاستخفاف بالناس وسوء الظن بهم، وفيهم بلا شك من هو خير منك، فإذا استخففت بهم بغير حق استخفوا بك بحق لأن الله تعالى يقول: **{وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا}** [الشورى :40] فتولد في نفسك الاستخفاف بك، بل على الحقيقة مع مقت الله عز وجل، وطمس ما فيك من فضيلة.

فإن أعجبت بعقلك، ففكر في حل فكرة سوء تمر بخاطرك وفي أضاليل الأماني الطائفة بك، فإنك تعلم نقص عقلك حينئذ.

وإن أعجبت بآرائك، فتفكر في سقطاتك ولا تنسها، وفي كل رأي قدرته صواباً فخرج بخلاف تقديرك، وأصاب غيرك وأخطأت أن ، فإنك إن فعلت ذلك فأقل أحوالك أن توازن سقوط رأيك بصوابه، فتخرج لا لكَ، ولا عليك، والأغلب أنّ خطأك أكثر من صوابك، وهكذا كل أحد من الناس بعد النبيين صلوات الله عليهم.

وإن أعجبت بخيرك، فتفكر في معاصيك وتقصيرك، وفي معايبك ووجُوهه، فوالله لتجدن من ذلك ما يغلب على خيرك، ويعفى على حسناتك، فليطل همك حينئذ وأبدل من العجب نقصا لنفسك.

وإن أعجبت بعلمك، فاعلم أنه لا خصلة لكَ فيه، وأنه موهبة من الله مجردة وهبك إياها ربك، فلا تقابلها بما يسخطه، فلعله ينسيك ذلك بعلة يمتحنك بها تولد عليك نسيان ما علمت وحفظت.

ولقد أخبرني عبد الملك بن طريف - وهو من أهل العلم والذكاء واعتدال الأحوال وصحة البحث - أنه كان ذا حظ من الحفظ عظيم لا يكاد يمر على سمعه شيء يحتاج إلى استعادته، وأنه ركب البحر فمر به فيه هول شديد أنساه أكثر ما كان يحفظ، وأخل بقوة حفظه إخلالاً شديداً، ولم يعاوده ذلك الذكاء بعد، وأنا أصابتني علة فأفقت منها، وقد ذهب ما كنت أحفظ، إلا ما لا قدر له يذكر ، فما عاودته إلا بعد أعوام.

واعلم أن كثيرا من أهل الحرص يجدون في القراءة والإنكباب على الدّرس والطلب ثم لا يرزقون منه حظاً، فليعلم ذو العلم أنه لو كان بالإنكباب وحده لكان غيره فوقه، فصح أنه موهبة من الله تعالى، فأي مكان للعجب هنا؟ ما هذا إلا موضع تواضع وشكر لله تعالى، واستزادة من نعمه واستعاذة من سلبها.

ثم تفكر أيضاً في أن ما خفي عليك وجهلته من أنواع العلوم، ثم من أصناف علمك الذي تختص به والذي أعجبت بنفاذك فيه؛ أكثر ممّا تعلمُ من ذلك، فاجعل مكان العجب استنقاصاً لنفسك واستقصاراً لها فهو أولى.

وتفكر فيمن كان أعلم منك تجدهم كثيرا، فلتَهُن نفسك عندك حينئذ، وتفكر في إخلالك بعلمك كثيراً، وأنت لا تعمل بما علمت منه، ولقد كان أسلم لك لو لم تكن عالماً، واعلم أن الجاهل حينئذ أعقل منك وأحسن حالاً واعذر، فليسقط عجبك بالكلية)). مجموع رسائل ابن حزم (مداواة النفوس وتهذيب الأخلاقوالزهد في الرذائل) **386/1-389.**

قلت: من أراد الله له الشفاء والعافية، يسر له الاستفادة من هاتين الوصفتين المجانيتين. ثم بعد ذلك يحاسب نفسه، وينقلب عليها، ويجردها للحق، ويحلها من الأغلال والقيود التي فرضها الغرور والعجب، ثم يسأل الله الإعانة والثبات، ويكثر من التضرع والإنكسار للواحد الأحد، الذي بيده مقاليد كل شيء.

وأخيراً نختم بهذه الكلمة القيمة من الإمام الذهبي، والتي توضح شدة إهمالنا في ترك الدواء، حيث يقول رحمه الله: ((إي والله، فالعجب منا ومن جهلنا كيف ندع الدواء ونقتحم الداء؟! قال الله تعالى **[فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ]** البقرة: 15] **[وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ]** العنكبوت 46] وقال: **[الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ]** الرعد: 29] ولكن لا يتهيأ ذلك إلا بتوفيق الله. ومن أدمن الدعاء ولازم قرع الباب فتح له)). سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي 4/494.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه سلم.

وكتبه أخوكم أبو عبد الرحمن.